

بكاء القيروان في الشعر المغربي القديم⁽¹⁾ د : سعد بوفلاقة

ق. اللغة العربية وآدابها

جامعة عنابة

موضوع هذا البحث هو «بكاء القيروان في الشعر المغربي القديم، بعد احتياحها من قبل الهلاليين»، وقد تعرضت فيه إلى رثاء المدين في الشعر العربي، في المشرق والأندلس، قبل نكبة القيروان، ثم حاولت أن أقدم صورة عن بكاء القيروان في الشعر العربي، من خلال شعر أربعة شعراء قيروانيين، هم : ابن رشيق المسيلي القيرواني⁽²⁾، وابن شرف القيرواني⁽³⁾، وأبو الحسن الحصري القيرواني⁽⁴⁾، وعبد الكريم بن فضال القيرواني⁽⁵⁾، كما تناولت الخصائص العامة في شعرهم.

1- لمحة عن بكاء المدين في الشعر العربي قبل نكبة القيروان:

أ- في المشرق : بكاء المدين في الشعر، هو باب من الرثاء، عرفه شعراء المشرق، إلا أنهم لم يبلغوا فيه شأن المغاربة والأندلسيين، الذين كانوا فيه أكثر روعة ولعل ذلك يعود لكون خراب المدائن، وزوال الدول تباعاً، إنما وقع بكثرة في المغرب العربي، ولا سيما في الأندلس، فقد أحزهم أن يروا مدينتهم تسقط مدينة إثر مدينة في أيدي الغزاة المكسحين، فبكوا بقصائد ومقطعات، خلّدها لنا التاريخ في مصادره المختلفة، وأول ما وصلنا من الشعر المشرقي في بكاء المدين، هذه المقطوعة للشاعر عمرو بن عبد الملك الوراق الذي بكى فيها بغداد أثناء الفتنة بين الأيمن والمأمون سنة سبع وتسعين ومائة للهجرة (197هـ- 812م)، حين حاصرها طاهر بن الحسين قائد جيش المأمون، ودام الحصار سنة واشتد البلاء وعظم الخطب⁽⁶⁾، وكثر الحريق والهدم ببغداد، ودُرست محاسنها

فاستحالت إلى أطلال، وتنقل الناس من مكان إلى مكان هرباً من الجحيم⁽⁷⁾،
ونظر الشعراء إلى مدينتهم الجميلة -بغداد- فرأوا ما نزل بها من صنوف
التدمير والتخريب، فندبوا بشعرهم، وممن بكأها عمرو بن عبد الملك الوراق،
إذ رد ما أصابها إلى العين فقال :

مَنْ ذَا أَصَابَكَ يَا بَغْدَادُ بِالْعَيْنِ	أَلَمْ تَكُونِي زَمَانًا قُرَّةَ الْعَيْنِ؟
أَلَمْ يَكُنْ فِيكَ قَوْمٌ كَانَ قُرْبُهُمْ	وَكُنْ مَسْكَنُهُمْ زَيْنًا مِنَ الزَّيْنِ؟
صَاحَ الْغُرَابُ بِهِمْ بِالْبَيْنِ فَافْتَرَقُوا	مَاذَا لَقِيتَ بِهِمْ مِنْ لَوْعَةِ الْبَيْنِ؟
أَسْتَوْدِعُ اللَّهَ قَوْمًا مَا ذَكَرْتُهُمْ	إِلَّا تَحْدَرُ مَاءُ الدَّمْعِ مِنْ عَيْنِي
كَانُوا فَفَرَقَهُمْ دَهْرٌ وَصَدَعَهُمْ	وَالدَّهْرُ يُصَدِّعُ مَا بَيْنَ الْفَرِيقَيْنِ ⁽⁸⁾

وفي وقعة شارع دار الرقيق العظيمة التي هلك فيها خلق كثير، يقول أحد
الشعراء، يكي بغداد وأهلها:

بَكَتْ عَيْنِي عَلَى بَغْدَادَ لَمَّا	فَقَدْتُ غَضَارَةَ الْعَيْشِ الْأَنْبِقِ
أَصَابَتْنَا مِنَ الْحُسَادِ عَيْنٌ	فَأَفْنَتْ أَهْلَهَا بِالْمَنْجَنِيقِ
فَقَوْمٌ أَحْرَقُوا بِالنَّارِ قَصْرًا	وَنَائِحَةٌ تَنُوحُ عَلَى غَرِيبِ
وَصَائِحَةٌ تُنَادِي: يَا صَحَابِي	وَقَائِلَةٌ تُنَادِي: يَا شَقِيقِي

إلى أن يقول:

فَلَا وَلَدٌ يُقِيمُ عَلَى أَبِيهِ وَقَدْ هَرَبَ الصَّدِيقُ عَنِ الصَّدِيقِ⁽⁹⁾
وفي بكاء بغداد أيضا، قال الشاعر الخريمي بن حسان الفارسي قصيدة
طويلة « وصف فيها ما حلَّ ببغداد في ثبرة آسية، ولوعة صادقة، صور خلالها
الفتنة تصويراً دقيقاً مُسَهِّباً، حَتَّى لَتَبْدُو أَمَامَ الْعَيْنِ، حِينَ قِرَاءَتِهَا، صُورَ التَّخْرِيبِ
وَالذَّمَارِ وَالْقَتْلِ وَالذُّعْرِ يَتَغَشَّى النَّاسَ فِي الطَّرَقَاتِ »⁽¹⁰⁾، ومطلعها :

يَا بُؤْسَ بَعْدَادَ دَارَ مَمْلَكَةٍ دَارَتْ عَلَى أَهْلِهَا دَوَائِرُهَا⁽¹¹⁾

وفي خمس وخمسين ومائتين للهجرة (255هـ) إقتحم الزنج مدينة البصرة، وأشعلوا نار الحرب فيها، وهزمو جيوش الخليفة، واستباحوا البصرة وغيرها⁽¹²⁾، واستمرت مقاومتهم للدولة العباسية بقيادة علي بن محمد مدة أربعة عشر عامًا، هددوا خلالها كيان الدولة العباسية، ودمروا البصرة عن آخرها، وقد بكاهها ابن الرومي (221-283هـ)⁽¹³⁾ بقصيدة وصف فيها غلبة الزنج عليها، واعتداءهم على الأموال والحرمات والأعراض، منها قوله :

أَيُّ نَوْمٍ مِنْ بَعْدِ مَا حَلَّ بِالْبَصْرَةِ مَا حَلَّ مِنْ هَنَاتٍ عِظَامٍ
أَيُّ نَوْمٍ مِنْ بَعْدِ مَا انْتَهَكَ الزَّنجُ جَهَارًا مَحَارِمَ الْإِسْلَامِ
كَمْ أَخٍ قَدْ رَأَى أَحِبَّاءَهُ صَرِيحًا تَرَبَّ الحَدَّ بَيْنَ صَرَغَى كِرَامٍ⁽¹⁴⁾

ويبدو أن المشاركة لم يهتموا بهذا الفن اهتمام المغاربة والأندلسيين، ولذلك لم يظهر هذا اللون من الشعر في أدبهم، كما ظهر في الأدب الأندلسي غرضًا قائمًا بذاته.⁽¹⁵⁾

ب - في الأندلس : يقول الدكتور أحمد المكي : « فبكاء الممالك المنهارة والمدن الذاهبة، فنُّ أندلسيٍّ أصيلٍ فيما أرى، وُجِدَتْ دَوَافِعُهُ في المشرق والمغرب على السواء، وخصَّ الأندلس ببعضها، وتفرَّد بأنه جرى مع هذه الدوافع إلى غايتها، فكان له معها قصيدٌ رائعٌ أحيانًا، ودون الجيد أحيانًا أخرى، تبعًا لثقافة الشاعر وطاقاته النفسية، وحظّه من تجارب عصره عمقًا واتساعًا....».⁽¹⁶⁾

وكانت الفتنة في قرطبة سببا في بداية انتشار شعر بكاء المدن في الأندلس، إذ نظر الشعراء إلى عاصمتهم حينئذ - قرطبة - فوجدوا معالمها قد دمرت، ودورها قد خربت وتهدت، فندبوها بمرثيتهم، ومن بكاهها ابن حزم

(384-456) الذي كان قد غادرها والتجأ إلى المرية خوفا على نفسه، لكنه ظلّ يتمنى أن تكون له قبرا، فقال:

ولو أننا نستطيع كنت لنا قبرا
تدمرنا طوعا لما حلّ أو قهرا⁽¹⁸⁾

فيا دار لم يقفرك منا اختيارنا
ولكن أقدارا من الله أنفذت
وبكاها ابن شهيد أيضا فقال :

يَبْكِي بَعَيْنِ دَمْعُهَا مُتَفَجِّرُ
فَتَبَرُّوا وَتَعَرَّبُوا وَتَمَصَّرُوا
مُتَفَطِّرٌ لِفِرَاقِهَا مُتَحَيِّرُ⁽¹⁹⁾

فَلِمِثْلِ قُرْطُبَةٍ يَقِلُّ بَكَاءُ مَنْ
دَارُ أَقَالَ اللَّهُ عَثْرَةَ أَهْلِهَا
فِي كُلِّ نَاحِيَةٍ فَرِيقٌ مِنْهُمْ
وبكاها آخر بقصيدة منها:

فقد ذهنتها نظرة العين
وعيشها المستعذب اللين
بها سرورا بين اثنين
إن كنت أزمعت على البين⁽²⁰⁾

ابك على قرطبة الزين
كانت على الغاية من حسنها
فانعكس الأمر فما إن ترى
فاغدُ وودعها وسر سالما

وبكاها آخرون أيضا⁽²¹⁾، وتوسّعوا في بكاء المدن والممالك الزائلة -
فيما بعد- بعد أن رأوا مدنها تسقط مدينة إثر مدينة في أيدي التّصاري، فبكى
ابن العسّال (عبد الله أبو محمّد) مدينة طليطلة بعد أن استولى عليها التّصاري
سنة 478 هـ، وابن اللبانة دولة بني عباد، وابن عبدون دولة بني الأفضس،
عندها أزالهما ابن تاشفين، وبكى ابن خفاجة مدينة بلنسية التي سقطت في
أيدي الفرنجة سنة 488 هـ، كما بكى أبو البقاء الرندي الأندلس بكاملها بعد
أن استردها التّصاري، ولا يتسع المجال هنا لذكر بعض النماذج من شعر هؤلاء،
وبعد هذه النبرة عن بكاء المدن في الشعر العربي في المشرق والأندلس، نصل
الآن إلى الحديث عن بكاء القيروان في الشعر المغربي.

بكاء القيروان في الشعر المغربي :

كانت القيروان قبل نكبتها سنة تسع وأربعين وأربعمائة للهجرة (449 هـ) في أوج عظمتها، وقمة حضارتها، تزخر بالعديد من العلماء والأدباء الكبار أمثال محمد بن جعفر النحوي المعروف بالقرّاز (ت 412 هـ) وإبراهيم الحُصْري (413 هـ) صاحب زهر الآداب، و(ابو الحسن الحصري 480 هـ)، وغيرهم. كما كان بلاط المعزّ بن باديس يَرفُلُ بالعلماء والأدباء، وكان من بينهم ابن رشيق (390-486 هـ) وابن شرف (390-460 هـ) اللذان حازا إعجاب المعزّ بن باديس، وحظيا بعنايته، واهتمامه « وكانا مقدّمين عنده على سائر من في حضرته، يثير بينهما عوامل المنافسة والتحدي، فتنافسا وتنافرا، ثم تهاجيا»⁽²²⁾ ولم يتصالحا إلّا في ديار الغربية بجزيرة صقلية، حيث فر الشاعران بعد نكبة القيروان، وعاشا معا فترة من الزمن، لكن ابن شرف غادرها إلى الأندلس التي توفي فيها سنة ستين وأربعمائة للهجرة (460 هـ)⁽²³⁾ بمدينة إشبيلية، وبقي ابن رشيق في صقلية حتّى وافته منيته على أرضها سنة ست وخمسين وأربعمائة (456 هـ)⁽²⁴⁾ في رواية، وفي رواية أخرى سنة 463 هـ.⁽²⁵⁾

وكلا الشاعرين بكى مدينة القيروان حينما اقتحمها عرب صعيد مصر، ومن بين ما وصلنا في هذا الفن من شعر ابن رشيق قصيدته النونية التي يقول فيها :

كَمْ كَانَ فِيهَا مِنْ كَرَامٍ سَادَةٍ	بيض الوجود شوامح الإيمان
متعاونين على الديانة والتقى	للّه في الأسرار والإعلان
وأئمة جمعوا العلوم وهذبوا	سنن الحديث ومشكل القرآن
علماء إن ساءلتهم كشفوا العمى	بفقاهاة وفصاحة وبيان
وإذا دجّ الليلُ البهيمُ رأيتهُم	مُتَبَلِّغِينَ تَبَلَّ الرهبان ⁽²⁶⁾

ويعمضي الشاعر واصفاً العلماء والزهاد والفقهاء من أهل القيروان بالتقى والورع، وخوف جبابرة الملوك منهم، لأنهم خافوا الله فخافهم كل الوري، إلى أن يقول :

كَانَتْ تُعَدُّ الْقَيْرَوَانُ بِهِمْ إِذَا	عَدَّ الْمَنَابِرُ زَهْرَةَ الْبِلْدَانِ
وَزَهَتْ عَلَى مَصْرِ وَحَقَّ لَهَا كَمَا	تَرْهُو بِهِمْ وَعَدَتْ عَلَى بَغْدَانِ
حَسُنَتْ فَلَمَّا إِذْ تَكَامِلَ حُسْنُهَا	وَسَمَا إِلَيْهَا كُلُّ طَرْفٍ رَانِ
وَتَجَمَعَتْ فِيهَا الْفَضَائِلُ كُلُّهَا	وَعَدَتْ مَحَلَّ الْأَمْنِ وَالْإِيمَانِ
نَظَرْتُ لَهَا الْأَيَّامُ نَظْرَةً كَاشِحٍ	تَرْنُو بِنَظْرَةٍ كَاشِحٍ مَعْيَانِ
حَتَّى إِذَا الْأَقْدَارُ حُمَّ وَقَوَّعُهَا	وَدَنَا الْقَضَاءُ لِمَدَّةٍ وَأَوَانِ
أَهْدَتْ لَهَا فَتَنًا كَلِيلَ مُظْلِمٍ	وَأَرَادَهَا كَالنَّاطِحِ الْعِيدَانِ
بِمَصَائِبٍ مِنْ فَادِعٍ وَأَشَائِبِ	مَنْ يَجْمَعُ مِنْ بَنِي دَهْمَانِ (27)

ثم يشير ابن رشيق بعد ذلك، إلى ما أصاب القيروان من دمار وكيف نقض بنو هلال العهد وغدروا بالقيروانيين، فقتلوا الرجال وسبوا النساء، ونهبوا الأموال، وشرّدوا الأطفال، وقد صوّر الشاعر خروج الناس حفاةً عائذين برّيتهم، خائفين، هاربين، يحملون أطفالهم، فقال :

فَتَكُونُ بِأَمَةٍ أَحْمَدَ أَثْرَاهِمِ	أَمْنُوا عِقَابَ اللَّهِ فِي رَمَضَانِ؟
نَقَضُوا الْعَهْدَ الْمِرْمَاتِ وَأَخْفَرُوا	ذِمَّةَ الْإِلَهِ، وَلَمْ يَفُوا بِضِمَانِ
فَاسْتَحْسَنُوا غَدْرَ الْجَوَارِ وَأَثَرُوا	سَبِي الْحَرِيمِ وَكَشَفَةَ التَّسْوَانِ
سَامُوهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَأَظْهَرُوا	مَتَعَسِّفِينَ كَوَامِنَ الْأَضْغَانِ
يَسْتَصْرِخُونَ فَلَا يَغَاثُ صَرِيحُهُمْ	حَتَّى إِذَا سُمُّوا مِنَ الْأَرْنَانِ
فَادُوا نَفُوسَهُمْ فَلَمَّا أَنْفَدُوا	مَا جَمَعُوا مِنْ صَامِتٍ وَصَوَانِ
وَاسْتَخْلَصُوا مِنْ جَوْهَرٍ وَمَلَابِسِ	وَطَرَائِفِ وَذَخَائِرِ وَأَوَانِ

خرجوا حُفَاة عائدين برّهم منْ خوفهم ومصابب الألوان
هَرَبُوا بكل وليدة وفطيمة وبكل أرملة وبكل حصان
وبكل بكر كالمهاة عزيزة تسي العقول بطرفها الفتان
خودٌ مبتلةٌ الوشاح كأنها قمرٌ يلوح على قضيب البان⁽²⁸⁾

ثم يذكر مسجد عقبة بن نافع في القيروان، وما آل إليه بعد النكبة، وكيف أصبح قبرا بعد أن توقفت الصلوات به، فكانت بذلك أعظم مصيبة أصابت الإسلام والمسلمين، وبعثت في نفوسهم الحزن والأسى إذ يقول :

والمسجد المعمور جامعُ عُقبة حربُ المغاطين مظلمُ الأركان
قفرٌ فما تغشاه بعدُ جماعة لصلاة خمسٍ لا ولا لأذان
بيتٌ بوحى الله كان بناؤه نعم البنا والمبتنى والباقي
أعظمُ بتلك مصيبةٍ ما تنجلي حسراتها أو بنقضي الملوان⁽²⁹⁾

وبمضي ابن رشيق في قصيدته ليشير إلى أن الأمة العربية والإسلامية في المشرق والمغرب، حينئذ قد أحزنهما ما أصاب القيروان، فقال :

حَزِنَتْ لها كُورُ العراقِ بِأسْرِها وَقَرى الشَّامِ ومِصرَ والحِرسَانِ
وَتَرَعَزَعَتْ لمصابِها وتَنكَدَتْ أسفاً بلادُ الهِنْدِ والسِّنْدَانِ
وعَفَا منَ الأفطارِ بعدَ خَلَاتِها ما بَيْنَ أندَلُسٍ إلى حُلُوانِ⁽³⁰⁾

ولم يقف الحزن على القيروان عند الإنسان، وإنما تجاوزته إلى الطبيعة، فالتجوم الزاهرة، والشمس والقمر، والليل والنهار، والجبال، والأرض، قد اهتزت جميعها لمصاب القيروان، يقول :

وأرى التجومَ طَلَعْنَ غَيْرَ زَوَاهِرٍ في أَفْقِهِنَّ وأظْلَمَ القَمَرانِ
وأرى الجبالَ الشُّمَّ أَمستَ خشعاً لمصابِها وتَرَعَزَعِ الثَّقَلانِ⁽³¹⁾

ويختتم قصيدته بالتساؤل عما إذا كان في الإمكان أن تعود القيروان إلى سابق مجدها وعزّها، ولكن كيف السبيل إلى ذلك، بعد ما لعب الزّمان بأهلها، وسلبتها الأيام حسننها وجمالها؟ فيقول :

أترى الليالي بعدما صَنَعَتْ بنا تَقْضِي لَنَا بتواصلٍ وتَدَانٍ؟
وتعيدُ أرضَ القيروانِ كعَهدِها فيما مضى من سالفِ الأزمانِ
أُمِسَتْ وقد لَعِبَ الزّمانُ بأهلِها وتقطعت بهم عُرَى الأقرانِ
فتفرّقوا أيدي سبأ وتشتّتوا بعد اجتماعِهم على الأوطانِ⁽³²⁾

كانت هذه مقتطفات من نونية ابن رشيق في بكاء القيروان، وهي قصيدة طويلة تبلغ خمسة وخمسين بيتا، وقد صوّر لنا فيها الشاعر النكبة تصويرا دقيقا، كما وصف حال المدينة في أيام عزّها ومجدها، وما آلت إليه بعد اقتحامها. جاء كلّ ذلك بأسلوب عربيّ مبین، بالرّغم ممّا تسرّب إليه من جمل مضطربة ركيكة أحيانا، أمّا عاطفته فصادقة لأنّه من أهل المدينة الذين شردوا وأبعدوا عن ديارهم، فجاءت عاطفته حزينة لأنّ قلبه يقطر ألماً وأسى على ما حلّ بمدينته الجميلة من دمار وخراب...

أمّا ابن شرف القيرواني (390-460 هـ)، صديق ابن رشيق السّالف الذّكر، فقد بكى مدينته هو الآخر بشعر رقيق، يدل على امتلاكه لموهبة شعرية، وقدرة فنية على قول الشعر، وخوض غماره في مهارة وبراعة، ومما وصلنا من شعره في بكاء القيروان، قصيدته اللامية التي يصف فيها جالية القيروان بمدينة سوسة، وما أصابها من مهانة واحتقار، إثر فرارهم بعد نكبة مدينتهم، يقول :

أه للقيروان! أتة شجّو عن فؤاد بجاحم الحزن يصلي

حين عادت به الديار قبورا
ثم لا شعبة سوى أنجم نخ
بعّد زهر الشماع توقّد وقدّا
والوجوه الحسان أشرقّ منهن
بل أقول : الديار منهن أحلى
طو على أفقها نواعس كسلى
ومتان الذبال تفتل قتلا
وتفضلنهنّ معنى وشكلا
إلى أن يقول :

بعد يوم كأنما حشر الخلد
ولهم زحمة هنالك تحكي
من أيامي وراءهن يتامى
وحصان كأنها الشمس حسنا
ليسوا الباليات من خشن الصو
ناديات : عفراء تسعد سعادى
ليس منهن من يودّع جارّا
كلهنّ اعتدى الفراق عليه
مزقوا في البلاد شرقا وغربا
لا يلاقي النسب منهم نسيا
ق حفاة به، عواري، رجلى
زحمة الحشر والصحائف تئلى
ملئوا حسرة وشجوا وثكلا⁽³⁴⁾
كفتتها الأطمار نخلأ كحلا⁽³⁵⁾
ف وعاد التبيه في الناس غفلا
وسعاد تجيب بالتوحي جملا
لا ولا حُرمة تشيع أهلا
فاقتحمن الجلاء حفلا فحفلا⁽³⁶⁾
يسكبون الدموع هطلا ووبلا
يتعزى به ولا الخل خلا⁽³⁷⁾

والقصيدة في ثلاثة وثلاثين بيتا، وهي من عيون الشعر العربي في هذا
الفن من حيث دقة تصوير ما أصاب القيروانيين من ذلّ وهوان أثناء تعرّض
مدينتهم للاقتحام من قبل الغزاة ولا بن شرف قصائد ومقطوعات أخرى في
ندب القيروان والحنين إليها، ومنها قوله:

يا قيروان وددت أئى طائر
آها وآية آهة تشفي جوى
فأراك رؤية باحث متأمل
قلب بنيران الصبابة مصطلي

أبدت مفاتيح الخطوب عجائباً كانت كوامن تحت غيب مقفل⁽³⁸⁾

والآن نتقل إلى شاعر قيرواني آخر، ألا وهو : أبو الحسن الحصري القيرواني، صاحب القصيدة الشهيرة التي مطلعها :

يا ليل الصَّب متى غده أقيام الساعة موعده⁽³⁹⁾

ولد في حدود سنة عشرين وأربعمائة للهجرة 420 هـ بالقيروان⁽⁴⁰⁾، وفيها قضى شبابه، أي : نحو ثلاثين سنة من عمره، وبعد نكبة القيروان اضطر إلى الهجرة من وطنه كما فعل الشاعران السالف ذكرهما من قبل، ابن رشيق وابن شرف، والتجأ إلى سبتة واستقر بها يدرس علم القراءات ثم اجتاز إلى الأندلس واتصل ببني عبّاد في إشبيلية ومدحهم ثم انتقل بين عواصم ملوك الطوائف وأخيرا حل بمدينة طنجة، وبها توفي سنة ثمان وثمانين وأربعمائة للهجرة (488 هـ).⁽⁴¹⁾

وقد ألمته نكبة القيروان كبقية شعراء عصره، فقال يندبها بقصيدة طويلة نقتطف منها هذه الأبيات :

موت الكرام حياة في مواطنهم فإن هم اغتربوا ماثوا وماتوا
يا أهل ودي لا والله ما انتكثت عندي عهد ولا ضاقت مودات

لئن بعد ثم وحال البحر دونكم لبين أرواحنا في التوم زورات
ما نمت إلا لكي ألقى خيالكم وأين من نازح الأوطان نومات⁽⁴²⁾
إلى أن يقول :

أصبحتُ في غربي لو لا مكائمي
بكنتي الأرض فيها والسموات
كأني لم أذق بالقيروان حنى
ولم أفل لها لأحبابي ولأهاتوا
ألا سقى الله أرض القيروان حيا
كأنه عراقي المستهلات⁽⁴³⁾

ونلاحظ أن الحصري أكثر براعة في الشعر من صاحبه : ابن رشيق وابن شرف، ولعل لأفة العمى التي أصيب بها الحصري دورا في ذلك.
وبكى القيروان أيضا، بعد نكبتها الشاعر عبد الكريم بن فضال القيرواني، فقال :

كيف يا قيروان حالك لما
نثرنا لبن سلكك المنظوما
كنت أم البلاد شرقا وغربا
فمحا الدهر وشيك المرقوما⁽⁴⁴⁾

الخصائص العامة في شعر بكاء القيروان :

في ختام بحثنا هذا، يجدر بنا أن نشير إلى بعض الخصائص العامة في شعر بكاء القيروان، وهي :

1- الشعراء الذين رثوا القيروان كلهم من أهلها، وقد ألجأهم الهلايون إلى هجرها، والفرار منها، ولذا بالغوا في تصوير المأساة، أي : ما نزل بها من صنوف التدمير والتخريب والعسف والهوان....

2- الشعر فن من فنون الكلام، يعتمد على الصور والأخيلة التي تقتفي أثر الحقيقة وتلتصق بها، وبالنظر إلى أن الحقيقة قد وقعت فعلا، فإن علم المؤرخ وبحثه يجدان الحقيقة، وخياله وفنه يوضحان مدلولها⁽⁴⁵⁾، ولذلك يمكن أن يستفيد التاريخ من الشعر، ولكن لا يجب الاعتماد عليه كلية كوثيقة أو سند تاريخي دون تمحيص وتدقيق...

3- بعض الشعراء لم يذكروا الهلالين بسوء، وإنما أرجعوا المصير المحتوم، أي :
نكبة القيروان إلى القضاء والقدر ودعوا الله أن يعيدها إلى سالف
عهدا...
(1)

4- ما وصلنا من شعر في هذا الفن، قصائد ومقطعات، ولم يختص أيُّ شاعر
بهذا اللون من الشعر...

5- بالنسبة لطول النفس وقصره : لقد طالت قصائد بعض الشعراء كنونية ابن
رشيق ولامية ابن شرف، وتائية الحصري، أما بقية الأشعار التي وصلت
إلينا فمقطعات قصيرة.

6- أما بالنسبة للوحدة الموضوعية : فقد جاءت قصائدهم ومقطعاتهم كلاً
متماسكاً، يصعبُ أن نجد فيها ثغرات وقد أعطى هؤلاء الشعراء لهذا الفن
أهمية، فكانوا من أوائل الذين أفردوا له قصائد ومقطعات...

7- تميّز شعرُ رثاء القيروان بصدق العاطفة، وحرارة الشعور، لأنه يصدر عن
عاطفة أسي عميق، ويبدو لنا الحزن واضحاً في ثنايا القصائد
والمقطوعات...

8- أما الأسلوب، ففي جملة سهل، يمتازُ بالموسيقى الحزينة والرّنة الواجحة،
والآنة الوجعية، وهو يختلفُ من شاعر إلى آخر، فأسلوبُ ابن رشيق
ركيك، وقد يبلغ حدَّ الإسفاف أحياناً، ومردُّ ذلك أن ابن رشيق كان
ناقداً أكثر منه شاعراً، أما أسلوب ابن شرف فكان سلساً، وألفاظه
واضحة مألوفة، وقد برع في تصوير المدينة والهاربين منها، أما الحصري
فكان أكثر براعة في الأسلوب من صاحبيه ابن رشيق وابن شرف، فأسلوبه
متين السبك، جميل اللفظ مشرق الديباجة، ولعل لآفة العمى التي أصيب
بها الحصري دوراً في ذلك، أما ابن فضال فلا نستطيع الحكم على أسلوبه
وشاعريته لقلة ما وصلنا من شعره في هذا الباب.

هوامش ومراجع :

- (1) هذا البحث هو محاضرة شاركت بها في الملتقى الدولي حول سيرة بني هلال الذي نظمه المركز الوطني للدراسات التاريخية بالجزائر من 20 إلى 23 ماي 1990 م.
- (2) هو حسن بن رشيق، مملوك من موالي الأزد، وُلد بالمسيلة سنة تسعين وثلاثمائة للهجرة (390 هـ)، ونشأ بها، وتأدب بها يسيراً، وعلمه أبوه صنّعه وهي الصياغة، وقال الشعر قبل أن يبلغ الحلم، وتآقت نفسه إلى التزيد من ذلك، وملاقة أهل الأدب فرحل إلى القيروان سنة ست وأربعمائة (406 هـ)، فأخذ عن جُلّة علمائها، ثم اتصل بالبلاط الصنهاجي سنة سبع عشرة وأربعمائة (417 هـ) ومدح المعزّ بن باديس، وأصبح من شعرائه المقربين... (ابن رشيق : أنموذج الزمان في شعراء القيروان، ص : 439-440. ط تونس 1986)، وأنظر عنه: ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج2، ص: 85 (ط. إحسان عباس). والعماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج3، ص: 298 والسيوطي : بغية الرعاة، ج1، ص : 111، (طبعة القاهرة).
- (3) هو محمد بن أبي سعيد، المعروف بابن شرف القيرواني، الأديب الشاعر، ولد في مدينة القيروان سنة تسعين وثلاثمائة للهجرة، والقيروان في أوج ازدهارها رافلة بالعلوم، حافلة بالفنون، زاخرة بالعديد من العلماء والأدباء الكبار، فتلقى العلم والأدب عنهم، حتى نبغ وأجاد وأصبح من شعراء الدولة الصنهاجية القريين، ونديماً لأمرها المعز بن باديس الذي حاز إعجابه وحظي بعنايته هو وصديقه ابن رشيق، حيث كان المعزّ يثير بينهما عوامل المنافسة والتحدي، وبقي ابن شرف في هذا الجو الأدبي الخصب حتى غادرها إلى الأندلس التي توفي بها عام ستين وأربعمائة للهجرة (ديوان ابن شرف، ص : 19 وما بعدها) وأنظر عنه: ابن بشكوال: الصلة، ج2، ص : 571 ط مكتبة الثقافة 1975م.
- وياقوت الحموي: معجم الأدباء، ج19، ص: 37، (ط. القاهرة 1936).
- (4) أبو الحسن الحصري القيرواني (420-488 هـ) ولد بالقيروان وقضى فيها طفولته وشبابه أي نحو ثلاثين سنة، وبعد نكبة القيروان اضطر إلى الهجرة من وطنه كما هاجر غيره، واستقر في سبتة ثم رحل إلى الأندلس، وأخيراً حلّ بطنجة سنة 483 هـ

قادما إليها من عواصم الأندلس، واستقر فيها حتى أذرَكَنَّهُ المنية سنة 488 هـ (أنظر حياته وشعره بالتفصيل في كتاب، محمد المرزوقي والجيلالي بن الحاج يحيى : أبو الحسن الحصري القيرواني)

(5) هو أبو الحسن عبد الكريم بن فضال القيرواني، عاش في القرن الخامس الهجري، وشهد نكبة القيروان سنة 449 هـ ورثاها كبقية شعراء عصره... (أنظر عنه : الخريدة للأصفهاني - قسم شعراء المغرب والأندلس - ج2، ص: 188. وديوان الحصري القيرواني (أبو الاحسن). ص: 38).

(6) ابن العماد الحنبلي : شذرات الذهب، ج1، ص: 347 وأنظر ما بعدها، وأنظر أيضا : المسعودي مروج الذهب، ج3، ص: 511 وما بعدها (ط. الجزائر).

(7) المسعودي : المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

(8) المسعودي : المصدر نفسه، ص: 511-512، وردت الأبيات دون ذكر قائلها، ووجدت اسم الشاعر في كتاب الدكتور الطاهر أحمد مكي: دراسات أندلسية ص: 255 لكنه لم يذكر المصدر الذي استقى منه المعلومة.

(9) المسعودي : المصدر السابق، ص: 513-514.

(10) الدكتور الطاهر أحمد مكي: دراسات أندلسية ص: 255-226.

(11) ابن قتيبة : الشعر والشعراء، ص: 586 (ط. دار إحياء العلوم، بيروت). وأنظر أيضا الجاحظ: الحيوان، ج1، ص: 224 و 354. (تحقيق عبد السلام هارون).

(12) ابن العماد الحنبلي : شذرات الذهب، ج2، ص: 129.

وأنظر أيضا : المسعودي : مروج الذهب، ج4، ص: 236-237 و 242 وما بعدها.

(13) ابن الرومي : الديوان، ج2، ص: 419 (تحقيق : الدكتور حسين نصار).

(14) المصدر نفسه، والصفحة نفسها.

(15) الدكتور عبد العزيز عتيق: الأدب العربي في الأندلس، ص: 320.

(16) الدكتور الطاهر أحمد مكي : دراسات أندلسية، ص: 229.

(17) أنظر عن الفتنة : ابن عذاري : البيان المغرب، ج3، ص: 42 وما بعدها

(ت: ليفي بروفنسال. و: ج.س. كولان).

- (18) ابن الخطيب : أعمال الأعلام، ونشر باسم تاريخ إسبانيا الإسلامية ص: 107، وأنظر القصيدة كاملة هناك (107-108) تحقيق : ليفي بروقنسال. ط2، 1956. نقلا عن الدكتور الطاهر أحمد مكي: المرجع السابق، ص: 240.
- (19) ابن الخطيب: المصدر السابق، ص. 105، نقلا عن الدكتور إحسان عباس، تاريخ الأدب الأندلسي - عصر سيادة قرطبة - ص: 138-139.
- (20) ابن عذاري : المصدر السابق، ص: 110.
- (21) أنظر المصدر السابق، الصفحة نفسها، وأنظر أيضا: ابن بشكوال: الصلة، ج1، ص: 35، (ط. القاهرة 1955م).
- (22) ابن شرف: الديون، ص: 20 (تحقيق : د. حسن ذكرى حسن).
- (23) المصدر نفسه، ص: 24.
- (24) و (25) ابن العماد الحنبلي : شذرات الذهب، ج3، ص: 298 وأنظر : لبن خلكان: وفيات الأعيان، ج2، ص: 85 والسيوطي: بغية الوعاة، ج1، ص: 504، (ط. القاهرة) وياقوت الحموي: معجم الأدباء، ج8، ص: 111، (ط. القاهرة).
- (26) رابع بونار : المغرب العربي، تاريخه وثقافته، ص: 360-361.
- (27) رابع بونار: المرجع نفسه، ص: 361.
- (28) نفسه، ص: 362.
- (29) نفسه، والصفحة نفسها.
- (30) و (31) نفسه والصفحة نفسها.
- (32) المرجع نفسه، ص: 363.
- (33) متان: ج. مثن. المتان: ما بين كل عمودين. الذبال: ج. الذبالة: الفتيلة.
- (34) الأيامي: جمع أيم: من لا زوج له. الشحو: الحزن والهم، الثكل: الموت والهلاك، وفقد الحبيب، وأكثر استعماله في فقد المرأة لزوجها أو ولدها.
- (35) الحَصَانُ: المرأة العفيفة البعيدة عن الرية. النجلاء: واسعة العينين في جمال.
- (36) الجلاء: الخروج من الوطن. الحفل: الجمع من الناس.
- (37) ديوان ابن شرف، ص: 89-90-91-92 (تحقيق د. حسن ذكرى حسن).

- (38) المصدر نفسه، ص: 86.
- (39) ديوان الحصري، ص: 143 (تحقيق محمد المرزوقي والجيلالي بن الحاج يحي).
- (40) المصدر نفسه، ص: 30، وأنظر مابعدهما.
- (41) نفسه، ص: 81.
- (42) نفسه، ص: 125.
- (43) نفسه، ص: 125.
- (44) نفسه، ص: 38.